شرح كتاب (عقيدة السلف وأصحاب الحديث) لأبي عثمان الصابوني-رحمه الله.

شرح فضيلة الشيخ

أ.د. أحمد بن عبدالرحمن القاضي

بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس (١٨)

نتعلم في هذا الدرس:

١. مسألة الخير والشر

٢. إرادة الله

٣. عواقب العباد

٤. المبشرون بالجنة

١. [مسألة الخير والشر]

ثم قال الشيخ رحمه الله:

(ويشهد أهل السنة ويعتقدون: أن الخير والشر والنفع والضر بقضاء الله وقدره لا مرد لها ولا محيص ولا محيد عنها، ولا يصيب المرء إلا ما كتبه له ربه، ولو جهد الخلق أن ينفعوا المرء بما لم يكتبه الله له لم يقدروا عليه، ولو جهدوا أن يضروه بما لم يقضه الله لم يقدروا ، على ما ورد به خبر عبد الله بن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال الله عز وجل: {وَإِن يَمْسَسْكَ اللّهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلاَ رَآدَّ لِفَضْلِهِ}).

نعم، الخير والشر من الله عز وجل، والنفع والضر منه سبحانه، لا يد لأحد في ذلك بل هو المقدر لكل شيء فلهذا جاء في الحديث: ((وتؤمن بالقدر خيره وشره))، وفي بعض الآثار: ((وحلوه ومره))، ولما كان عبادة بن

الصامت على فراش الموت أوصى ابنه فقال: يا بني إنك لن تبلغ الإيمان ولن تذوق حلاوته، حتى تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطأك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك.

وأما خبر بن عباس الذي أشار إليه الشيخ أبو عثمان، فهو حديث وصية النبي صلى الله عليه وسلم لابن عباس وهي وصية عظيمة حتى سماها بعض العلماء بالحديث المدهش؛ لأنه يقول: كلما قلبت فيها النظر دهشت؛ مما فيها من المعاني العظيمة، وهي قوله صلى الله عليه وسلم: ((يا غلام، إني علمك كلامات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا – أي الأمة – على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف)) رواه الترمذي، وقال: حديث حسن صحيح.

فهذا الحديث وعموم الإيمان بالقدر يسكب في قلب المؤمن الطمأنينة، وأن كل شيء بقدر، وأنه إذا وقع شيء يسؤه وفاته شيء من حظوظ الدنيا، فإنه يطمئن، لأنه لو كان مقدر له لكان، كان النبي صلى الله عليه وسلم يستحضر هذا في أدق الأمور، كما حدث أنس رضي الله عنه أنه إذا لامه أحد من أهل النبي صلى الله عليه وسلم على شيء فعله لما فعله، أو شيء لم يفعله لما لم يفعله، قال النبي صلى الله عليه وسلم: ((دعوه؛ لو قدر لكان))، وهذا من أعظم أسباب السعادة؛ لأن الشقاء والنكد والحزن، إنما يأتي للإنسان لشعوره بفوات مطلوب، وأنه لم يتحقق، فيأخذ يقول: لو، لو، يتأسى ويتحسر، ولو كما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم: ((تفتح عمل الشيطان)).

ثم نبه الشيخ على مسألة، فقال رحمه الله:

(ومن مذهب أهل السنة وطريقتهم مع قولهم بأن الخير والشر من الله وبقضائه: أنه لا يضاف إلى الله تعالى ما يتوهم منه نقص على الانفراد، فيقال: يا خالق القردة والخنازير والخنافس والجعلان، وإن كان لا مخلوق إلا والرب خالقه، وفي ذلك ورد قول رسول الله صلى الله عليه وسلم في دعاء الاستفتاح: ((تباركت وتعاليت والشر ليس إليك)).

نعم هذا تنبيه لطيف، أنه وإن كان كل شيء بقدر الله تعالى، ولكن من باب الأدب واللياقة في مخاطبة الله سبحانه وتعالى والتعبير، ألا يضاف الشر منفردًا إليه، فلا يقال: يا خالق الشر هكذا، ولا يقال يا خالق الجعلان والخنافس والقردة و الخنازير، وغير ذلك من الدواب والهوام والحيوانات الرديئة؛ لأن في قصر الكلام في هذا نوع تنقص، فلا يجمل أن يعبر بهذا التعبير، أرأيت لو أنك خاطبت أميرًا من الأمراء، فقلت له أنت أمير الحلاقين، وأمير الجزارين، وأمير الكناسين، لعد ذلك منقصة، ومذمة، وربما أدبك، لأنك قلت ذلك، مع أنه في الواقع كذلك، لكنك لأنك أفردت وانتقيت هذه المعاني دون غيرها كان ذلك في التعبير مذمة ومنقصة.

فلذلك كان من مذهب أهل السنة وطريقتهم ألا يضاف الشر إلى الله سبحانه وتعالى منفردا، فلذلك جاء في دعاء النبي صلى الله عليه وسلم في الاستفتاح: ((لبيك وسعديك والخير كله في يديك والشر ليس إليك، أن بك وإليك، تباركت وتعاليت، أستغفرك وأتوب إليك)) هكذا هو في ((صحيح مسلم))، والشاهد منه: ((والشر ليس إليك)) أي أنه لا ينسب ولا يضاف إلى الله.

ثم إن الشيخ زاد ذلك إيضاحًا فقال:

(ومعناه والله أعلم: والشر ليس مما يضاف إليك إفراداً وقصداً، حتى يقال لك في المناداة: يا خالق الشر! ويا مقدر الشر! وإن كان هو الخالق والمقدر لهما جميعاً، لذلك أضاف الخضر عليه السلام إرادة العيب إلى نفسه)

وقوله: (عليه السلام) يشعر أنه يراه نبيًا، وفي هذا بين أهل العلم هل كان نبيًا، أم كان عبدا صالحا؟ ومن العلماء من قال أنه نبي، لأن الله سبحانه وتعالى أطلعه على علوم خاصة تقع عن طريق الوحي، ومنهم من قال: عبد صالح مكاشف، ولكن في هذا القول الثاني في الحقيقة ما قد يشجع مقالة أهل البدع من الصوفية الذين يزعمون لبعض أوليائهم أنهم مكاشفون وأن أحدهم يقول: حدثني قلبي عن ربي.

فلعله كان نبيًا يوحي إليه، وأطلعه الله تعالى على هذه العلوم.

الشاهد من ذلك الكلام: أن الخضر عليه السلام أضاف العيب إلى نفسه.

(فقال فيما أخبر الله عنه في قوله: {أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ} تاء المتكلم، تاء الفاعل {أَنْ أَعِيبَهَا} وفاعل أعيب هو أي الخضر.

(ولما ذكر الخير والبر والرحمة أضاف إرادتها إلى الله عز وجل فقال: {فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا} و لم يقل: فأردت، {فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ} [الكهف:٨٢]، ولذلك قال مخبراً عن إبراهيم – وهذا مثال ثاني – عليه الصلاة والسلام أنه قال: {وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ} فأضاف المرض إلى نفسه، والشفاء إلى ربه، وإن كان الجميع منه.)

أيضًا من شواهد ذلك: قول مؤمن الجن: {وَأَنَّا لا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا} فلما ذكروا الشر، كان من أدبهم أنهم لم يضيفوه إلى الله عز وجل، وإنما أتو بالفعل الذي لم يسمى فاعله {أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الأَرْضِ} ولما كان الخير قالو: {أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا} فأسندوا الخير إلى الله سبحانه وتعالى.

٢. إرادة الله

ثم قال أبو عثمان:

(ومن مذهب أهل السنة والجماعة: أن الله عز وجل مريد لجميع أعمال العباد خيرها وشرها، ولم يؤمن أحد إلا بمشيئته، ولو شاء لجعل الناس أمة واحدة، ولو شاء أن لا يعصى ما خلق إبليس، فكفر الكافرين وإيمان المؤمنين بقضائه سبحانه وتعالى وقدره وإرادته ومشيئته، أراد كل ذلك وشاءه وقضاه).

وفي هذا رد على المعتزلة الذين أنكروا المشيئة لله تعالى، وزعموا أن الله لم يشأ طاعة الطائع ولا معصية العاصي، ولا إيمان المؤمن ولا كفر الكافر، والحق أنه كما قال الله عز وجل: {وَمَا تَشَاؤُونَ إِلاَّ أَن يَشَاء اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ} هذا مع إثبات المشيئة للعبد، فقد قال ربنا عز وجل: {نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ} فلا تعارض بين هذا وذاك، فأهل السنة والجماعة يثبتون لله المشيئة النافذة والإرادة التامة، في كل ما يقع على

وجه الأرض، أما المعتزلة فإنهم يقولون: الله شاء الخير، والعبد شاء الشر، ووقع ما شاء العبد و لم يقع ما شاء الله. وهذا من أعظم التنقص لله رب العالمين.

(ثم قال أبو عثمان: **ويرضى الإيمان والطاعة ويسخط الكفر والمعصية، قال الله عز وجل: {إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ}**).

إذن لا تلازم بين المشيئة والمحبة، فقد يشاء ما لا يحب، وقد يحب ما لا يشاء، لأن المحبة هي إرادته الشرعية، والمشيئة هي إرادته الكونية، هو سبحانه قد يشاء ما لا يحب، كما قال: {**وَلا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ**} ومع ذلك شاء الكفر لحكم بالغة، وقد يحب ما لا يشاء، فالله أحب أن يؤمن الناس جميعا، لكنه لم يشأ ذلك لحكم بالغة، لذلك نقول لا تلازم بين المحبة والمشيئة، فقد يشاء ما لا يحب وقد يحب ما لا يشاء، هذا معتقد أهل السنة والجماعة.

٥. [عواقب العباد]

ثم قال الشيخ رحمه الله:

(ويعتقد ويشهد أصحاب الحديث: أن عواقب العباد مبهمة لا يدري أحد بم يختم له، ولا يحكمون لواحد بعينه أنه من أهل الجنة، ولا يحكمون على أحد بعينه أنه من أهل النار؛ لأن ذلك مغيب عنهم لا يعرفون على ما يموت عليه الإنسان، ولذلك يقولون: إنا مؤمنون إن شاء الله، أي: من المؤمنين الذين يختم لهم بخير إن شاء الله).

من معتقد أهل السنة والجماعة: أنهم لا يقطعون لمعين بجنة ولا نار، ولا يشهدون لمعين بجنة ولا نار، إلا من شهد له النبي صلى الله عليه وسلم؛ لأنهم لا يعلمون ما يختم للعبد، وبناء على ذلك.

أدخل الشيخ مسألة الاستثناء في الإيمان: أي أن يقول الإنسان أنا مؤمن إن شاء الله؛ لأن قول إن شاء الله هذه هي الثنية إي الاستثناء، فاختلف الناس في هل يستثنى في الإيمان أم لا؟ فقال قوم لا يجوز الاستثناء في الإيمان لأن

هذا شك، فكيف يقول الإنسان في أمر يجب فيه الجزم والقطع: إن شاء الله، فكيف يستثني، لابد من القطع والجزم، فمنعوا أن يقول الإنسان أن مؤمن إن شاء الله، وحكموا بأن يقول أنا مؤمن.

وقوم على النقيض: قالوا يجب على الإنسان أن يقول إن شاء الله، لأنه لا يدري بما يختم له، ولأنه إذا قال أن مؤمن بإطلاق فقد زكى نفسه، وقد قال الله تعالى: {فَلا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى}.

والصحيح: أن في هذا تفصيل، فإن كان الحامل والباعث، على الاستثناء في الإيمان هو الخوف من تزكية النفس، أو التبرك بذكر المشيئة، فلا بأس بهذا بل ربما يجب ويتعين، وقصدي بالتبرك بذكر المشيئة من جنس قول الله تعالى: {لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لا تَخَافُونَ} فقوله إن شاء الله وهو سبحانه وتعالى يعلم ويحكم ووعده حق وقد صدق رسوله الرؤيا بالحق، فيكون قول الإنسان أنا مؤمن إن شاء الله في بعض الحالات من باب التبرك، إذا كان كذلك فهذا مطلوب ولا بأس به.

بل نقول إنه يجب إذا كان المراد بالإيمان الإيمان الكامل، فلو قال امرأ أنا مؤمن وقصد بذلك الإيمان الكامل، هذا تزكية للنفس، يجب عليه أن يتبرأ من تزكية نفسه، وألا يغتر بعمله.

أما إذا كان الحامل والباعث على قول إن شاء الله هو التردد وعدم الجزم والقطع بما يعتقد: فإنه حينئذ لا يجوز الاستثناء، وهذا إذا تعلق الأمر بأصل الإيمان يكون ترددا، فهذا هو التفصيل في هذه المسألة.

ثم قال الشيخ رحمه الله:

(ويشهدون لمن مات على الإسلام أن عاقبته الجنة؛ فإن الذين سبق القضاء عليهم من الله يعذبون بالنار مدة لذنوبهم التي اكتسبوها، ولم يتوبوا منها؛ فإنهم يردون أخيراً إلى الجنة، ولا يبقى أحد في النار من المسلمين فضلاً من الله ومنة).

أراد الشيخ رحمه الله بأن من مات على الإسلام بأن عاقبته الجنة، إما مباشرة إذا كان من الصالحين، أو من عفى الله عنهم مجانا من أصحاب الكبائر، أو غير مباشرة بأن يكون من الموحدين العصاة، فاستحق بأن يطهر بالنار ما شاء الله، ومرده بعد ذلك إلى الجنة.

فنشهد أن المؤمنين في الجنة على اختلاف طبقاتهم، إما دخولا أوليا، أو دخولا ثانيا، ولكن هذه شهادة عامة ليست لمعين.

(ومن مات والعياذ بالله على الكفر فمرده إلى النار لا ينجو منها، ولا يكون لمقامه فيها منتهى)

وقد تقدم تقرير أن الجنة والنار: مخلوقتان باقيتان لا تفنيان.

٦. [المبشرون بالجنة]

ثم إن الشيخ رحمه الله خص من شهد له النبي صلى الله عليه وسلم فقال:

(فأما الذين شهد لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم من أصحابه بأعيانهم ، فإن أصحاب الحديث يشهدون لهم بذلك، تصديقا منهم للرسول صلى الله عليه وسلم فما ذكره ووعده لهم، فإنه صلى الله عليه وسلم لم يشهد لهم بها إلا بعد أن عرف ذلك، والله تعالى أطلع رسوله صلى الله عليه وسلم على ما شاء من غيبه، وبيان ذلك في قوله عز وجل: (عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا (26) إِلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ)، وقد بشر صلى الله عليه وسلم عشرة من أصحابه بالجنة، وهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف وسعد وسعيد وأبو عبيدة بن الجراح).

هؤلاء العشرة سلكهم النبي صلى الله عليه وسلم في حديث واحد وقال((أبو بكر في الجنة وعمر في الجنة...)) إلى آخره، فهؤلاء نشهد لهم بالجنة لشهادة رسول الله صلى الله عليه وسلم، الذي أطلعه الله سبحانه وتعالى على ذلك.

(وكذلك قال لثابت بن قيس بن شماس: "إنه من أهل الجنة ". قال أنس بن مالك: فلقد كان يمشي بين أظهرنا ونحن نقول: إنه من أهل الجنة.)

ولهذا قصة أخرجها البخاري رحمه الله في صحيحه من حديث أنس بن مالك أن النبي صلى الله عليه وسلم افتقد ثابت بن قيس، فقال: رجل يا رسول الله أنا أعلم لك علمه، فأتاه فوجده جالس في بيته منكس رأسه، فقال: ما شأنك؟ فقال: شر ، كان يرفع صوته فوق صوت النبي صلى الله عليه وسلم – يعني أن قال عن نفسه أنه كان

يرفع صوته فوق صوت النبي صلى الله عليه و سلم، وقد قال تعالى{لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ} – فقد حبط عمله وهو من أهل النار _ والسلف رحمهم الله من الصحابة والتابعين إذا أخبروا عن شيء فيه ما يسوء عبروا عنه بضمير الغيبة، لئلا يكون التعبير عنه بلفظ المتكلم واقع على المتحدث، وهذا أمثلته كثيرة – فأتى الرجل فأخبره أن قال كذا وكذا – أي أخبر النبي صلى الله عليه وسلم – قال فرجع المرة الآخرة ببشارة عظيمة، فقال((إذهب إليه فقل له: إنك لست من أهل النار، ولكن من أهل الجنة))، إذن فقد بشر، وفي بعض الألفاظ أنه قال له((بل تعيش حميدًا، وتموت شهيدًا، وتدخل الجنة))، رضي الله عنه، فكان أن قتل شهيدًا يوم اليمامة.

إذن من شهد له النبي صلى الله عليه وسلم بجنة أو نار فإنا نشهد له بشهادة النبي صلى الله عليه وسلم، وما لا: فلا، ولكننا نجري الحكم الظاهر على الكافر بكفره، فإن علمنا أن فلانًا مات على الكفر، حكمنا عليه بالكفر، وقلنا الكفار هم أهل النار، وإن علمنا أنه مات على الإسلام نحكم بإسلامه ونقول المسلمون أهل الجنة، وكذلك القول بالنسبة لليهود والنصارى.

وصلى الله وسلم وبارك على عبده ونبيه محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

هذه المادة لم تراجع على الشيخ -حفظه الله .